زيارة مخطوط قديم

دلني بعض فضلاء دمشق على كتاب خطي قديم في فن الجراحة ، موجود عند مالكه (خورشيد افندي الچركسي) من متقاعدي المالية ، زرنا الرجل في داره في الدرويشية أمام جامع (سباي) واطلعنا على الكتاب ، فاذا هو مجلد متوسط الحجم مخروم الاول والآخر ، ومكتوب اسمه على ضمامة رؤوس اوراقه هكذا :

« الحاوي في الجراحة » كما رقم على ظهره : انه من كتب (الطبيب عبد القادر عوده) الدمشقي الذي كان حياً سنة (١٢٧٩) للهجرة . ثم ملك الكتاب ورثته من بعده . وقد فهمت من الفاضل الدمشقي الذي كان معي في زيارة هذا المخطوط كما حدثني غيره ايضاً — انه بعد موت الطبيب عوده المذكور كانت كتبه الطبية تباع اكداساً في أسواق دمشق بثمن بخس دراهم معدودة .

تصفحت الكتاب فاذا هو مبوَّب بحسب أعضاء الجسم وما يطرأ عليها من العلل التي تقتضي العمليات الجراحية : كالعين والحنجرة وأعضاء التناسل في الرجال والنساء الخ . والمؤلف يبني فصول كتابه غالباً على النظريات الطبية المنسوبة الى من تقدمه من الاطباء : فهو يقول مثلاً (القول او الكلام على رأي الطبيب فلان في عملية العضو الفلاني) .

وخط الكتاب قديم ويلتزم كاتبه في كتابة بعض حروفه شكلاً خاصاً مثل الهاء واللام الف .

ومن غريب امر هذا الكتاب ان حرف الدال لا يذكر فيه الا منقطاً اي ذالاً معجمة . فما أدري ان كان المؤلف او الناسخ من بعض البلاد التي ينطق اهلها الدال ذالاً دائماً او انه من أمة السريان او العبرانيين او غيرهم ان كانوا ينطقون الدال ذالاً .

ومن مميزات هذا الكتاب انه يرسم صور آلات الجراحة المختلفة بالحبر الأسود او الأحمر . لكن الرسم غير متقن ولا محكم الوضع . كما ان خط الكتاب كذلك . فالكتاب يصوّر عدة صور من أشكال السكاكين والمباضع والمشارط والمحاقن وغير

ذلك ويخص كل عملية بآلة من هذه الآلات الجراحية . ومن لطيف ما رأيته فيه صورة محقنة على هيأة الحاقن الزجاجية المعروفة اليوم في الصيدليات وهي بحجم اصبع اليد . ونسميها نحن محقنة او حُقنة او طلمبة اما المؤلف فيسميها (زَرّاقة) .

وعلى أطراف صفحات الكتاب هوامش بخط (الطبيب الياس البيروتي) (وبعض هذه الهوامش يقول — تعليقاً على احدى العمليات الجراحية — انه هو (اى الياس البيروتي) عمل هذه العملية سنة بضع وسبعين وثمانمائة . فقد دلتنا هذه الهامشة على الزمن الذي كان يعيش فيه الطبيب الياس المذكور . كما دلتنا على ان مؤلف كتاب (حاوي الجراحة) الذي نحن في صدد الكلام عليه كان قبل ذلك التاريخ .

وعلى حاشية الكتاب ايضاً هامشة تعلن وفاة (ميخائيل بن جرجس الطبيب) فمن هذه الهوامش يظهر ان الكتاب ملكه أطباء سوريون نصارى ولكن من الذي ألفه من الأطباء ؟ ؟ .

غادرت بيت الرجل صاحب الكتاب شاكراً لطفه وحفاوته وانقلبت الى (دار المجمع العلمي) فراجعت فهرست ابن النديم فوجدته يقول : ان لابي بكر الرازي الطبيب المشهور والمتوفى سنة (٣١١) للهجرة كتاباً في الطب اسمه (الحاوي) ويسمى ايضاً (الجامع الحاصر لصناعة الطب) وهو يقسم الى اثني عشر قسماً .

والقسم الثالث منه في (الرئبة والجَبْر والجراحات) و يريد من (الرئبة) رَأْبَ الصدع والوثأ في الرجل .

والرأاب هو الذي يرأب الاعضاء الموثوءة . فهل كتاب (الحاوي في الجراحة) الذي زرناه هو القسم الثالث من الكتاب حاوي الرازي في الطب ؟ ؟ .

هذا ما قاله صاحب الفهرست ، اما صاحب كشف الظنون فقد ذكر كتابين طبيين باسم (الحاوي) : احدهما (الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين محمود بن الشيخ (صائن الدين إلياس) الشيرازي . قال وهو مجلد واحد مرتب على خمس مقالات . وكلها تدور حول العلل والحميات والأدوية . ولم يذكر ان بينها قسماً يتعلق بالجراحة فليس له علاقة إذن بالمخطوط الذي زرناه وقلنا ان اسمه (الحاوي في الجراحة) .

والكتاب الثاني الذي ذكره صاحب كشف الظنون هو (الحاوي في الطب) لابي بكر الرازي وقد نقلنا آنفاً ما قاله صاحب الفهرست فيه . وزاد صاحب كشف الظنون ان (رشيد الدين أباسعيد بن يعقوب المسيحي القدسي) المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة علّق على (حاوي الرازي) تعاليق وقد اختصره (الدخوار) وهو مهذب الدين عبد المنعم الذي أنشأ مدرسة الطب الدخوارية في دمشق سنة ٦٢١ وهل مخطوطنا الذي زرناه ووصفناه هو تعاليق الطبيب رشيد الدين المسيحي القدسي التي قال صاحب كشف الظنون انه علقها على (حاوي الرازي) ؟ لكننا ذكرنا آنفاً ان اسم المخطوط مرقوم عليه هكذا : (الحاوي في الجراحة) .

بقي علينا ان ننظر ما يقوله ابن ابي أصيبعة في كتابه (طبقات الاطباء) قال : ان كتاب (الحاوي) هو اجل كتب (ابي بكر الرازي) وأعظمها في صناعة الطب وذلك لانه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه . ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله . وتوفي (الرازي) ولم يفسح له في الأجل كي يحرر هذا الكتاب) .

ومما استفدناه من محاضرة رصيفنا الدكتور اسعد الحكيم التي ألقاها منذ حين في ردهة المجمع ان (حاوي الرازي) امتدت شهرته الى اوربا . وان (شارل) ملك سيسيليا (صقليه) ارسل وفداً الى ملك تونس يطلب منه كتاب (الحاوي) المذكور وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد اي بعد وفاة مؤلفه الرازي بنحو اربعمائة سنة . وذكر الدكتور اسعد افندي ايضاً كتاباً في الطب اسمه (التصريف) لمؤلفه الطبيب ابي القاسم الزهراوي الاندلسي ويظهر من وصف الدكتور لكتاب (التصريف) وما هو مصور فيه من رسوم الآلات الجراحية ان مخطوطنا (الحاوي في الجراحة) هو القسم الجراحي من كتاب (التصريف) للزهراوي وان بعض من علق بيده الكتاب ظنه (حاوي الرازي) فكتب عليه انه (الحاوي في الجراحة). وان لم يكن من كتاب التصريف فيكون قسم الجراحة من كتاب (حاوي الرازي) او لا ولا فهو (تعليقات) رشيد الدين القدسي على القسم الجراحي من كتاب حاوي الرازي .

وعلى كل حال لا بد لمجمعنا العلمي ان يكلف احد اطبائنا المدققين زيارة هذا المخطوط مرة ثانيــة فينظر اي الكتب الثلاثة هو؟ أو انه كتاب آخر غير ما ذكرته وارتأيته ·

المغربي

اخبار وافكار

زقاق الاربعين

طالعت في مجلة المجمع العلمي ما كتب في زقاق الاربعين في حلب ونسبته الى أربعين عيلة أُتي بها الى حلب بأمر السلطان مراد الى غير ذلك من الآراء · وانا أرى ان فريقاً ممن يروي هذه القصة في حلب يسند هذا الامر الى السلطان سليم الاول الذي دخل حلب صلحاً بعد موقعــة مرج دابق المشهورة سنة ١٥١٦ وفريق آخر يسنده الى السلطان مراد الرابع الذي دخل حلب سنة ١٦٣٩ بطريقــه الى العراق لأخذ بغداد من شاه العجم · ومع ما في هذا الاختلاف من الدلالة على سخافة هذه القصة لا يوجد سند تاريخي يصح الاعتماد عليــه باسناد هذا الامر الى احدهما · بل ان التاريخ الصحيح ينقضها :

فان ما كتبه عبد الله دلال سنة ١٨٣٨ في أصل تاريخ أُسرته مسنداً هذا الأمر الى السلطان مراد لا يصح الاعتماد عليــه لبعد هذا الكاتب عن زمان دخول السلطان المذكور الى حلب وما هو بالحقيقة الا ناقل لهذه الحكاية التي كانت شائعة في حلب على عهده وما على الناقل لها سبيل لتحقيقها ·

فقد قال الشماس بولس الحلبي الذي كان مع والده مكاريوس مطران حلب في مقدمة النصارى الذين خرجوا لاستقبال السلطان في صفحة ٤٤ كتابه في سفرة والده المذكور الذي طبعنا منه نخبة :

« وفي السنة الرابعة من رياسته التي هي سنة ٧١٤٧ للعـالم (١٦٣٩ مسيحية) وافى السلطان مراد بجيشـه من القسطنطينية الى حلب ودخلها يوم الخميس ١٢ تموز